(١)

يلاحظ الأستاذ العقاد أن الفهم ليس بالعمل اليسير . وربما قرن بين كلمة الفهم وكلمة الإصغاء . وليس الإصغاء المقصود عملا عضويا . بل هو احتشاد وإخلاص وضرب من التفانى . هذا التفانى الذى لا يميل إليه الجمهور . الجمهور أو الشعب لا يحب الإصغاء ، ولا يريد أن يخرج على ضرب من الذوق العام . وقد يكون تحليل هذا الذوق مفيدا فى عصرنا هذا الذى يكثر فيه اللهو أو اللغو والمجانة ، ويعتد هذا الذوق بنفسه حتى يصعب عليه الإصغاء إلى المرشدين المهذبين . وربما اتسعت المسافة بين الجمهور والخاصة . وربما اتهمت الخاصة الجمهور أو الشعب بما يشبه الجهل وسقم الإدراك .

وإلى جانب النزعات الشعبية هناك خطر ثان يتهدد الفهم هو الحرية بمعناها الساذج ، فكل إنسان اليوم يحب أن يكون وحدة قائمة بذاتها منفصلة بدخائلها ، لها حقوقها وعليها واجباتها ، لا شأن لها بأحد ، ولا شأن لأحد بها . ومعناها الساذج كذلك أن تكون أنت مستقلا بهمومك وأشجانك وغير متصل بالناس إلا فيما يتعلق بمنافعك وأعمالك ، فليس ما ينوبك أو ينوبهم إلا سرا مقفلا تطويه الصدور . فالإنسان على هذا النحو معزول ، والعزلة أثيرة لديه . وليس أدل على ذلك من أن الحديث بين الناس كثيرا ما يكون لغطا تنقضى به الساعات وتوصل به فترات اللعب والسرور .

وبعبارة أخرى تقتضى الحرية الساذجة والشعبية السائدة إطارا معلوما قوامه الأندية والمجالس والكتب والصحف ، وفى هذا الإطار يكثر الترديد ، وتبطل الحاجة إلى مشقة الفهم ، وأدوات التعاطف . وليس بغريب إذن أن يتوارى التعاطف ، ويتوارى احترام النفس وأحاديثها الباطنة . وليس بغريب أيضا أن يقول العقاد إن الحرية والشعبية تفهمان بطريقة خاصة لا تشجع على الحياء اللازم للفهم ، وتصبغ الفهم المفضل ـ مع الأسف ـ بصبغة تلائم ضوضاء الفتنة . فكل ما يعقله الجمهور أو يعلق به من هذا الباب . وتصبح الرزانة مكروهة ، ويستحيل الفهم والتقدير إلى صورة من العربدة